

في الأدب المقارن

الوصف

في الأدبين العربي والإنجليزي
للأستاذ نغرى أبو السعود

الوصف من صميم الفن ولباب الأدب وأدل ضروب القول على صدق الشعور وذكاء القلب، إذ أن روائع المشاهدات وطرائف المحسوسات وجدديد المراتب من أشد الأمور تأثيراً في نفس الأديب، واستجاشة له إلى التأمل، ودفعاً له إلى القول؛ وليس خير الوصف ما أحاط بكل حقائق الموصوف وأحصى كل دقائق أجزائه، كما تحصى الصورة الشمسية كل صغيرة وكبيرة من الشيء المصور، وإنما خير الوصف ما أظهر المهم الرائع من أجزاء تلك الصورة، وأبان عن أثرها في النفس، وما تبعثه فيها من ذكريات وأطياف وأشجان وإطراب، وارتحال الأديب من صقع إلى آخر، ومن بلد إلى سواه ومن دواعي لجوئه إلى الوصف، يعرض فيه ما يتوالى على عينه وحواسه من آثار ومظاهر؛ ومن ثم كانت الرحلة من أهم الأحداث في حياة الأديب بل من أهم مكروبات شخصيته.

والوصف من أشد آثار الأدب امتنا للنفس واستدعاء لانتباهها وإرضاء لغرائزها؛ إذ هو يرضى من الإنسان غريزة التقليد والحكاية اشقى المراتب والمحسوسات، ويروى منه الميل إلى إحساس صدى عواطفه لدى الآخرين، فهو يستريح إلى الأديب الذي يصف من المشاهدات ويروى من الاحساسات ما قد يكون القارئ مر به في مختلف أطوار حياته. والوصف أيضاً يحرك الخيال ويمتعه ويفسح له مجال العمل، ويبعد به وراء حدود الحياة اليومية الحاضرة. ومن ثم نرى البيت أو البيتتين يعرضان في القصيدة الطويلة مشتملين على وصف رائع لمنظر أو حادث أو إحساس، فيكونان غرة القصيدة وأحب أياتها إلى النفوس.

ولما كان الوصف ضرباً من القول فناً صمياً، وكان يحتاج لتجويده إلى إطالة النظر وطول التقصي ورياضة الكلام، وكانت موضوعاته أكثر من أن تعد وأوسع من أن تفنى، كان الوصف

يلعب أوج ازدهاره حين يبلغ الأدب طوره الفني، باستقرار الأمة وتخصر مجتمعاتها وذبوع الثقافة بين أبنائها، واستعمال الكتابة الخطية وتوفر الفراغ للتروى والمعالجة والمعاودة للنشآت الأدبية فالوصف من أهم أبواب القول التي تتسع وتترقى في طور الأدب الفني ذلك. ومصدق ذلك واضح في الأدب اليوناني قبل ازدهار الحضارة وبعده؛ ففي أشعار هوميروس لا يأتي الوصف إلا عرضاً ولا بوصف من الأشياء إلا ما دعت إليه الضرورة، وأكثر الاهتمام مصروف إلى القصص؛ فلما جاء شعراء الدراما واستقلوا نفس موضوعات هوميروس أحياناً، وشوها ببديع الأوصاف الفنية المقصودة لذاتها.

وفي الشعر العربي الجاهلي شذرات من الوصف رائعة، إذ كان ذلك الشعر بلغ من الفنية حداً لا بأس به؛ وكان لبعض الشعراء إلمام بالموصوفات يبدون فيه ما عرف به العربي من توفد القرينة ونفاذ البديهة وبلاغة الإيجاز؛ ولهم أوصاف حسنة لبعض أنواع الحيوان ولا سيما الجياد والابل والظباء، وللواقع والأطلال والأنواء، وفي المعلقات نماذج لكل ذلك متممة، حيث يصف كل من عنترة وامرئ القيس جواده ويصف ليلى ناقة، ويصفون جميعاً أطلال ديار أحبتهم ومن أجود أوصاف الحرب في الشعر الجاهلي قول القائل:

صريف أيابها صوت الحديد إذا قض الحديد بها أبنائها الورق
في جوها البيض والمأذى مختلط والجرد والمرد والخطية السم
جاءت بكل كمي معلّم ذكر في كفه ذكر يسعى به ذكر
لهم سراويل من ماء الحديد ومن نضح الدماء سراويل لهم آخر
مضاعفات عليهم يوم بأسهم لوتان جون وأخرى فوقهم حر
وبانتشار الحضارة وذبوع الثقافة اتسع باب الوصف في العربية أعظم اتساع، ووصف الشعراء مظاهر العمران والترف وقصور الملوك ومواكبهم وحدائقهم وجيوشهم وسفائنهم، ووصفوا الخمر ومجالس الشراب والطرب، ووصفوا الجوارى والغلمان، ووصفوا الصيد والسباق، وأولع الجاحظ وبديع الزمان بوصف الأحوال الاجتماعية، فصوراً مناظر في الحام وفي السرق ومواقف التخاصم والتقاضى، وأجرباً الحوار بين شتى الأشخاص عابهم وسافلهم. واشتهر أبو نواس بوصف الخمر، والبحترى بوصف القصور، والمتنبي بوصف الحروب، وابن الرومي بوصف الفواكه والمآكل وتصوير الشخصيات الهزلية ولما تغلبت الصناعة وطلبت البراعة اللغوية والنكتة المعنوية

ما فيها من منادح الوصف الشائق والتصوير المجسم ، بل عمدوا إلى الخرافة ولعلها أحفل بذلك من التاريخ ، إذ كانت أحفل منه بآثار الخيال وأحلام الانسانية ومثلها العليا في القوة والجمال والسعادة ، فاتخذ الشعراء والقصاصون تلك الخرافات مادة وهيكلاً لمنشآتهم ، ورصعوها بما شئت لهم براعتهم من أوصاف ووجدوا في أشعار هوميروس وفرجيل وقصص العصور الوسطى وأساطير الشرق والغرب مجالاً لفنهم ، فأعادوا سرد ما راعهم من حوادثها ومواقفها سرداً فنياً مسبب الوصف مشبعاً بحميل المناظر والعواطف .

وكما يختلف الوصف في الانجليزية عنه في العربية في الموضوع اختلافاً كبيراً ، يخالفه في الوسيلة مخالفة معدودة ، ففي العربية أوصاف بالغة من الكمال والامتناع ، بيد أنها جميعاً تعتمد على المعنى دون اللفظ ، وعلى التشبيهات والمجازات ، وتحتوى على كأن أو كاف التشبيه ظاهرة أو مستترة ، أما في الانجليزية فيستعين الشعراء بجانب هاتيك جميعاً على وسيلة أخرى ، ليست أقل أداء للغرض وتصويراً للنظر وإشباعاً للخيال والحواس ، تلك هي الملاممة بين صوت اللفظ وبين المعنى المصوغ فيه

وهذه الطريقة التي يلجأ إليها الانسان عمداً وعن وعى في طور الأدب الفنى ، قد لجأ إليها في عهوده البدائية ، أيام كان يصوغ ألفاظ لغته ويطلق كلامها على كائن من الكائنات ، أو صوت من الأصوات ، أو عمل من الأعمال ، أو غير ذلك . فالفاظ الرشاش والشواظ والسلسيل والسكون وغيرها ، تدل بنطقها على مدلولها لأن الأقدمين إنما اشتقوها من هيئة مدلولاتها ، فعلوا ذلك عفواً وبداهة ، حتى إذا ما بلغ الأدب الطور الفنى واستعان الشعراء والكتاب بالتدوين وأطالوا التجويد لما ينشئون استرعت الألفاظ انتباههم بعد أن كان جل اهتمامهم موجهاً إلى المعاني ؛ وعند هذا الحد من التطور افرق الأدباء العربى والانجليزى في طريقة استخدام الألفاظ . فأما الأدب العربى فجعل اللفظ غاية في ذاته ، وجعل التأنيق فيه مطمحاً مستقلاً ، وأما الأدب الانجليزى فعالج اللفظ وراضه وتأنق في صياغته ، ولكن لا على أنه غاية في نفسه ، بل على أنه وسيلة للمعنى لا أكثر

فإذا كان في المنظر المراد تصويره حركة كجريان نهر أو عدو جواد ، استخدم الشاعر الانجليزى بحراً من بحور الشعر يلائم تلك الحركة ، وإذا كان به صوت أو أصوات مختلطة كهدير الأمواج أو قصف المدافع ، اختار من الألفاظ تلك التي تحتوى على حروف خشنة قوية ، وإذا كان يصف منظرأ ساكناً وادعاً

والناتق والتظرف ، انعدم الحس أو كاد في الوصف ، وتعلق الأدباء بوصف توافه الأشياء كالخبرة أو الاسطرلاب أو القلم أو الكأس ، أو ماشابه ذلك مما هو في غنى عن الوصف ، وما وصفه إلا تحصيل حاصل وإضاعة وقت ، فإن الأصل في الوصف الفنى كما تقدم أن يكون له باعث من شعور صميم ، لا أن يكون الغرض منه حكاية تفاصيل باردة فائرة . وقد أولع بذلك الضرب من الوصف النظري ابن المعتز وابن خفاجة وكشاجم ؛ فلما أوغل الأدب في التصنع وجانب الأدباء كل ذوق وكل معقول في العمل والإغراب ، انقلب الوصف في أبهى أكثرهم إلغازاً ، فألغزوا في أنواع المآكل والأسماء والآلات ، وبأمثلة هذا الضرب من الاحاجى السقيمة تمتلئ مقامات الحريري وأشعار ابن نباتة المصري وأضرابه

والادب الانجليزى حافل منظومه ومشوره بمحاسن الأوصاف ؛ بيد أن باب الوصف فيه يخالف للوصف في الأدب العربى من وجوه شتى : فهما مختلفان في الموضوعات التي اتخذها كل منهما مادة وأدمن طرقها ؛ فقد تناول الأدب العربى - كما تقدم - وصف أنواع من الحيوان ، ووصف مظاهر اللهو والرفاهية ، وتناول بعد ذلك قليلاً من وصف الطبيعة والمجتمع ؛ أما الأدب الانجليزى فهو أحفل بوصف هذين الأخيرين منه بوصف أى شئ آخر ، فالطبيعة كانت قبلة أكبر شعرائه وكتابه وشغلهم الشاغل ، ووصفها كان دأبهم أياً طرقوا من موضوعات القول ، فامتلاً الأدب الانجليزى بكنوز من أوصاف الطبيعة ، تكاثر ما قيل في أى باب آخر من أبواب الشعر والنثر ؛ فالوصف الطبيعى مادة جانب عظيم من الشعر الانجليزى ، كما أن الوصف الاجتماعى مادة جانب عظيم من القصص والدرامات

وفي الأدب الانجليزى ضرب آخر من الوصف يستأثر به دون الأدب العربى ، على أنه من صميم الفن وأعلق نواحيه بالانسانية الشاملة والشعور العميق ، ذلك هو وصف آثار الأقدمين من عمار وحصون وتماثيل وصور وأبناء وعظامهم ، ففى ذلك كله منادح للخيال ومجال للابتداع ومذاهب للفكر ، وتأملات في أحوال الانسان وتقلب العصور والاحداث ، وتعظيم لقدرة الانسان وتقدير للفنون ، وكل ذلك يكاد يكون معدوماً في الأدب العربى ، والمثل الرائع الفريد في هذا الباب هو سينية البحترى التي لو كثرت مثيلاتها في الأدب العربى لكان أرفع قدراً ، وكان أعلامه أسير في العالمين ذكراً ولم يقتصر أدباء الانجليزية على آثار التاريخ يستوحونها

لم يذكر ذلك في القصيدة ذكراً، وإنما استعمل الألفاظ ذات الحروف اللينة كالسين. مثلاً، وهناك عدا هذا وذاك ضروب شتى من الملاممة بين الصبغة والمعنى يفتر فيها الشاعر الوصف ما شاء له فنه، ككثرة العطف أو القطع، وتكرار الحروف أو الكلمات أو التراكيب أو الشطور أو الأبيات الكاملة. وقد اشتهر بالفن في هذا التصوير اللفظي تيسون وسبنسروملتون، بل سائر أقطاب الشعر الانجليزي، بل جاراهم في ذلك بعض الكتاب مثل ستيفنسون وقد وقع شيء من ذلك في بعض أشعار الوصف في العربية، ولكنه كان إلهاماً محضاً أو اتفاقاً عارضاً ساقط الشاعر إليه الصدقة السعيدة أو السليقة المجيدة، دون أن يتعمده عن وعي أو يتكلف فيه عناء كالذي تكلفه في استخراج ما به من تشبيه وبجاز. ويتجلى الفرق بين الأدبين في هذا الصدد في علم البديع فيهما: فالبديع في العربية يشمل الجناس والسجع وهلم جرا، وهي غسقات للفظ مستقلاً بنفسه وليست لها علاقة بالمعنى، أما علم البديع في الانجليزية فيشمل الملاممة بين جرس الألفاظ وبين المعاني التي تؤديها، ويشمل تشابه الحروف الأولى في جميع ألفاظ الجملة الواحدة لأداء المعنى بطريق الجرس أيضاً، وغير ذلك من حل بلاغية ليست لها مصطلحات تترجم إليها في العربية، لأنها لم تكن من مألوف أدائها (١).

واللغة العربية بغزارة مادتها وتلاطم عابها وتعدد أوزانها وقوافيها، وجمعها بين وعى الألفاظ ولينها، ودقيق الأوصاف وجليلها، وما لها من مرونة في التراكيب ورحب في الأساليب ومطابقة لفن الأديب، هي خير معوان له على إبراز شتى الصور من جرس الحروف وتتابع الألفاظ وتجاور التراكيب، وتدفع الأوزان ورنين القوافي. انظر إلى الوزن كيف ساعد على إبراز المعنى في قول بشار في صوت مغنية:

تميت به أرواحنا وقلوبنا مرارا وتحيين بعد هجود
وقول ابن المعتز في خيل السباق:

خرجن وبعضهن قريب بعض سوى فوت العذار أو العنان
تري ذا السبق والمسبوق منها كما بسطت أناملها اليدان
ساعدت السليقة المواتية أو الجد الموفق بشارا، فجاء بيته ذاك يجره التطويل وحروف اللين المتتالية الوئيدة الحركة في «تميت، و» أرواحنا، و» قلوبنا، و» مرارا، و» تحيين، و» هجود، أصدق مصور لصوت المغنية إذا هي مددته وخالفت بين المدات

(١) ليس في المقامات كلها أروع ولا أدق من علم البديع في اللغة العربية، والمحدثات الموزونة به ثلاثة أرباعه. والدور الذي يصفه الكاتب الفاضل في الانجليزية يصفه (التلفظ والمعنى) في العربية (الرسالة)

فيه والقصرات، ويبدو ذلك جلياً إذا قرئ البيت على مهل. كذلك حالف التوفيق ابن المعتز فاختر لبنيته البحر الوافر المتدفق تدفق الخيل في مجالها، وحالفه التوفيق مرة أخرى فذكر العذار والعنان، وفضلاً عن أن تتابع هذين اللفظين عما يزيد الحركة جلاء فإن ذكرهما عما يزيد الصورة تجسماً، فإن ذكر جزء من الصورة دون بقية الأجزاء كثيراً ما يزيد الصورة وضوحاً، ويبعث من تلقاء نفسه باقي الأجزاء إلى الخيال. ولذلك مثال آخر في قول جميل:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالآركان من هو مسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا رسالت بأعناق المطى الأباطح
فذكر الأعناق هنا بلاغة فائقة، فهو يستتبع إلى الخيلة منظر

الابل والأباطح والركب، ويرسم حركة المطى معاً. وما يزيد الحركة تصويراً أيضاً اختيار الشاعر البحر الطويل البطيء النغم.

وهناك وسائل أخرى لتجسيم الحركة البطيئة، منها كثرة العطف

ففيها دلالة على التطاول والتواني، ومنها كثرة الألفاظ القصيرة

فإنها تستغرق نفس القاري حتى يكاد يلهث بعد قراءتها، ومن ثم

يشعر بالبطء في المعنى تبعاً للبطء في اللفظ. ومثال الوسيلة الأولى

قول امرئ القيس في تطاول الليل

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً ونام بكلكل

ومثال الثانية قول المتنبي:

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه

وفي أذن الجوزاء منه زمازم

فقد احتوى بيت امرئ القيس على ثلاث جمل معطوفة،

واحتوت الشطرة الأولى من بيت المتنبي على خمس كلمات كلها

قصير، إذا قرأها القاري متروياً جاءت بطيئة مشعرة ببطء الجيش

أو موحية بضخامته، فلم يذكر المتنبي صراحة ومباشرة أن الجيش

كان «ضخماً» فيعتمد على المعنى وحده في إعطائنا الصورة، بل

أوحى إلينا بمعنى الضخامة برسالة كلمات الشرق والغرب والزحف،

ولاعلاقة لهذه الكلمات في غير هذا البيت بالضخامة قط، وبذلك

استخدم المتنبي اللفظ ونطقه لأداء المعنى وهي هي الوسيلة التي

استغلها أدباء الانجليزية قصداً وعمداً أكبر استغلال وأبدعه.

أما الحركة السريعة فيؤديها البحر الكامل المتدفع، وهو لذلك

خير ما يصور فيه عدو الجياد، كما في قول المتنبي

أقبلت تبسم والجياد عوابس يخين بالخلق المضاعف والقنا

وقول ابن هاني: الأندلسي:

وفوارس لا الهضب يوم مغارها دضب ولا الرع الحزون حزون

ففي هذين البيتين تصوير رائع لعدو الخيل. وقد ساعد التوفيق

ثورة دجلة

للأستاذ علي الطنطاوي

« ازدادت دجلة يومى الأربعاء ١٠٣ صفر ١٣٥٥ زيادة هائلة لم تكن منتظرة ، وغدت بغداد هرشة الفرق بين كل لحظة وأخرى ، وسبق الناس كلهم للتل على إقامة الدود ، ولم نتمض فى بغداد ليلة الخميس عين ... وكان شئ عظيم ... »



كانت تجرى فى الوادى حاملة سكرى ، غارقة فى بحر من الحب والشعر ، هادئة لا ترى فيها إلا آثار هذه القبل المعطرة المعسولة التى تطبعها الشمس على وجنتيها الصافيتين كل صباح ومساء ، تخطفها منها فى غفلة من الطبيعة ، فلا يبصرها إلا الشفق الذى يطل من نافذة الأفق يرميها بنظرة الكاشع الحاشد ، فيحمر وجه دجلة الفتاة من الخجل ، وتغمض عينيها من الحياة ثم تسرع فى جريها ...

وكانت تتلقى بين ذراعيها العاشقين المدلهين ، كلما دجا الليل وأطنى مصباح الكون ، وهم فى الزوارق ذوات الأجنحة البيض التى تشبه قلوبهم فى ياضها وخفقاتها ، فتجذب عليهم ، وتحفظ أسرارهم ، وتمنحهم الخطوة الحلوة الآمنة ، وترع نفوسهم بالجمال والشعر ، حتى يغيبوا عن الوجه د فى حلم فأن يوبد ...

وكانت تغضى عن هذا النخيل العاشق ، وقد تعاقب كل زوجين منه ، وتلامسا بالشفاه ، واستسلما إلى الغيبة الهنيئة ، وعن هذه القصور التى تفتيات ظلاله ، سكرى بخمرة الجمال ، قد ضمت احناها على حياة لذة وادعة ، ملؤها الحب ...

وكانت دجلة جمال العراق ولعمته وحياته ...

...

وكنيت أذهب كل مساء ، إلى جسر مود ، انحدر إليه من الرصافة ، أمشى فى طريق ضيق ، كائن أهدى وادياً من أودية بلادى الحبيبة ، ثم أصمد حتى أبلغ ضفة الكرخ ، فاسلك شوارع الصالحية ، حتى أصل إلى المطار ... حيث أبقى ساعة شاخصاً إلى الأفق البعيد أتبصر فيه طيف موطنى الأصغر (١) وأتمسك نسمة فأشم فيه شذا القوطة ، وانتشق ربا نشرها العطر ، وعرف اسمها ونسريتها ، وقلها ويا سمينها ، وزنبقها ونرجسها ... حتى إذا قضيت

(١) أما موطنى الأكبر ، وموطن كل سلم ، فكل بلد يقول أمه . لا إله إلا الله محمد رسول الله ، سواء لدى أقالوها بالعربية أم بى لسان

الشاعر بن فى الفاظهما بجانب الوزن الذى اختاره ، فكرر حرف الباء فى بيت أنى العليب مما يزيد وقع حوافر الخيل فى بيته جلبة ووضوحاً ، وتكرار كلمتى المصطب والحزون فى بيت ابن هانىء يوحى إلى المخيلة تتابع المصطب والروانى أثناء عدو الفوارس ، حتى يكاد يتخيل الإنسان سيقان الخيل وهى تنهب تلك الحزون وتقفز من ربوة إلى ربوة . ويكاد البيت يعرض أمامك شريطاً سينمائياً متحركاً ، ومضى بلغ الشاعر هذا المدى من دقة التصوير وروعه ، فقد أوفى على الغاية من الفن والشاعرية ، كذلك نرى الوزن واللفظ قد اصطلحا على إبراز المعانى فى قول مسلم بن الوليد فى مغازة :

تمشى الرياح بها حيرى مولدة حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد وقول ابن حمديس :

وراقصة لقطت رجلها حساب يد فقرت طارها وقول المتنبي :

فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد من أختها بدل فى بيت مسلم تكاد تحس الرياح المحرقة تلفح وجوها وتمثلها تضرب جوانب الصخور ؛ وفى بيت الصقلى تمثل حركة الراقصة السريعة الخاطفة ؛ وفى البيت الثالث تمثل المتنبي على ظهر ناقته وهى تتخالف بين أظلالها ممعة فى الذهاب ، لما يمتاز به بحر المنسرح من اضطراب الحركة واندفاعها ، على حين يمتاز بحر الخفيف بالثؤدة وزنة الحزن ، مما يجعله ألبق البحور بالمرائى والوجدانيات ، وهو من أهم أسباب سباه الوقار والشجن التى تنسم بها دالية المعرى المشهورة التى مطلعها :

غير مجد فى ملقى واعتقادي نوح بالك ولا ترنم شاد وصفوة القول أن الأدبين العربى والانجليزى قد احتريا على بدائع من الوصف ، هى غذاء اللب ومناخ الخيال ؛ يد أن آثارها فى الأدب الانجليزى أغزر ، ونواحيها أكثر تعدداً ، ونصيب الطبيعة منها أوفر ، ووسائلها أكثر عدداً واختلافاً ، وأدباء الانجليزية كانوا أكثر بصراً بها وأطول رياضة لها ، وكان نجاحهم فيها راجعاً إلى المجهود المتبصر الواعى ، بجانب الطبع الصادق المواقى على حين كان نجاح أدباء العربية الذى مرت بعض أمثلته راجعاً فى أكثر الأحيان إلى عفو الخاطر وهداية البدية ، وما ذاك إلا لأن أدباء الانجليزية كانوا أكثر عكوفاً على فنهم ، وتفرغاً لأدبهم ، على حين كان أدباء العربية يولون الأمراء وذوى الهبات من اهتمامهم وتفرغهم ما كان فنهم به أحق ، وشاعرهم به أولى

فخرى أبحر السعور